

# عن معاني النصّ والخطاب في النقد الأدبيّ والسيميائيّ

عبد اللطيف محفوظ

المغرب

تؤكد الدّراسات المتعددة التي اهتمت بالخطاب والنص عدم وجود حدود صارمة تعرف كل مفهوم منهما، وأيضا عدم وجود حدود واضحة ومستقرة تحدد العلاقة بينهما، وذلك لكونهما نتيجة أسباب عديدة، لغوية ومعرفية، يتلقيان تعريفات مختلفة باختلاف الحقول المعرفية والتوجهات النظرية، واختلاف أشكال إدراك موضوعهما، والذي يتجسد بخصوص الحقل الأدبي في العمل الأدبي أو المؤلف الأدبي. ويتعمق هذا الالتباس مع حقيقة كونهما في أحيان كثيرة، إما يتلقيان نفس التحديدات أو تحديدات متشابهة، حيث لا نجد التمييز الواضح إلا نادرا. ومن هنا التباسهما بوصفهما مفهوماين دقيقين. ومن ثمة، فإن تمحيصهما في النقد العربي يفترض محاولة الاهتمام باستعمالتهما المهيمنة في أهم الحقول المعرفية الغربية والعربية، ويقتضي ذلك أولا رؤية المفهومين بوصفهما ترجمة لمفهومين غربيين، ثم إدراكهما بوصفهما دليلين لغويين

لتأسيس أي مقترح نظري ممكن. وسنعمل من أجل صياغة اقتراح نظري ما، على بنائه أولا، انطلاقا من تمثل معانيهما الغربية التي أضحت محايدة بالضرورة لمعانيهما في العربية، وثانيا، انطلاقا من تمثل معانيهما في التراث العربي اللغوي والمعرفي، وثالثا من تصورنا للموضوع المعرفي الحصري الذي يستعملان بوصفهما عنصرين أساسيين من الجهاز المفاهيمي المعد لمقاربتة والذي يتمثل في العمل الأدبي.

## 1. الخطاب والنص وإكراهات الفعل الترجمي

لا بد في البداية من الاهتمام بظاهرة التأثير الترجمي على الدليلين، على اعتبار أهمية هذا الفعل في تفسير ظاهرة الالتباس الواسمة لهما، خصوصا وأن الفعل الترجمي قد أنتج خاصية مع مفهوم Discours بشكل لم يراع البتة اختلاف معانيه في لغته الأصلية، فظهر في اللغة العربية في دليل واحد، كما لو كان ذلك قدرا مفروضا على بنية الذهن الممارس له تحت إرغامات وضع أصبح يقوم مقام القانون. ومن أجل التدليل على هذه الحقيقة، تكفي الإشارة إلى أن مفاهيم عديدة في مجالات مختلفة، بما فيها النقد الأدبي، هي مثار خلاف كبير بين المترجمين والمتداولين لها، ف *la pragmatique* مثلا، تعرف لحد الآن اختلافا في ترجمتها نظرا لاختلاف فهمها من قبل المترجمين وغيرهم، حيث كل تيار يقترح لها ترجمة يزعم أنها أنسب لمعناها الاصطلاحي. وهكذا نجد التداولية والنفعية والذريعية والذريعات والبرغماتية. ومن المفيد هنا التنبه من جهة، إلى أن الفعل الترجمي تعامل مع شكل إدراك موضوعها، وليس مع ممثلها التجسيدي، ومن جهة ثانية، إلى أن ممثلها التجسيدي المتعدد في اللغة العربية المترجم إليها، هو في الواقع تحديد وتقييم تأويلي لموضوعها الأول. ولذلك تتعدد الأدلة الممثلة لها في العربية،

حيث كل مقترح يجسد شكلاً تأويلٍ ما، يختلف بالضرورة عن الشكل المحقق من قبل غيره. وذلك بفضل تحقق العملية في مستوى مقولة الوجود، بناء على تفعيل عملية ذهنية ينحل بموجبها الدليل من مستواه الرمزي إلى وروده بوصفه نسخة وجودية وحادثة، تحدد موضوعه المتميز والتواصلي. وتدفعنا هذه الحقيقة إلى طرح سؤال يتعلق بالسبب الذي جعلنا لا نترجم المفهومين الغربيين *texte et discours* انطلاقاً من نفس الآلية، واكتفينا فقط بترجمة الممثل التجسدي. أي أننا نمارس الترجمة في مستوى مقولة الضرورة، حيث الأنساق اللغوية مجردة والأدلة رموزاً.

إن الإجابة الممكنة عن هذا السؤال، تكمن، لا ريب، في أن الشكل السيميائي المعتمد في ترجمة المفهومين، يفيد ثلاثة قضايا أساسية، تتضافر جميعها في إضفاء مزيد من الغموض عليهما في العربية، تتمثل الأولى في غياب أدلة منافسة ليس في المستوى المجرد حيث البعد الرمزي للأدلة، ولكن في المستوى الوجودي. ذلك أننا نجد بالنسبة لمفهوم *discours* من الأدلة المنافسة والمستعملة في حدود حصرية جدا (القول والكلام) وهما معا غير مناسبين سواء تعلق الأمر بالنوع الترجمي الأول أو الثاني، إضافة إلى أنهما مشغولان بترجمة أخرى مناسبة، ومن ثمة فإن الاستفادة منهما ستؤدي حتما إلى الالتباس، وإلى تهديم النسق المفاهيمي اللساني والسيميائي. علاوة على أن "القول" مثلا والذي استعمل من قبل بعض النقاد ترجمة لـ *discours* في حقل السرديات الشكلانية خاصة، يبدو غير مناسب البتة، لأن المفهوم الغربي في هذا الحقل، رغم الاختلاف النسبي لمعانيه باختلاف مشغليه، لا يماثل دلالة القول في العربية، سواء نظر إليه مجردا أو مُمَثَّلاً لمفهوم، لأنه في الحالين معا لا يتناسب مع

كيفيات وأشكال تهيئ المواد الدلالية وتجسيدها في المظهر المادي للعمل السردى، وهو ما لا يتلاءم مع معناه العربى. أما الدليل *texte* فلم يترجم إلى العربية إلا بالدليل "نص" الذي رغم أنه يبدو ترجمة وفق المستوى الثانى لل فعل الترجمة، الذى يأخذ بعين الاعتبار المعنى الاستعمالي، فإن المعنى المنقول يظل ملتبسا لأنه يضيف معناه الراسخ على معنى الظاهرة، التى فيما يترجمها يحددها تعيينيا.

وتتمثل القضية الثانية فى كون الاختلافات المتعددة التى تشكل حمولة الدليلين المفهومية فى الحقول المعرفية التى تدمجها ضمن أجهزتها المفاهيمية تستعصي على الضبط، فضلا عن كونها فى العديد منها يتبادلان المواقع حيث يسطو كل مفهوم على موضوع الآخر، فموضوع الخطاب مثلا، تارة يتمثل مع الفكرة العميقة التى يتغيا العمل الأدبى إبلاغها للمتلقى، وهى فى الغالب ذات حمولة إيديولوجية، تتوسل الحوامل الدلالية وأقوالها وسلوكاتها وأعمالها، وهو وفق هذا الاستعمال توصيف لمحافل نصية ما قبل إظهارية، ويرتبط هذا الاستعمال أكثر بتوجه تحليل الخطاب والباختينية وغيرهما. وأحيانا يتمثل مع شكل تفعيل آليات محايثة مسؤولة عن شكل تظهير العمل الأدبى كما هو الشأن مع السرديات الشكلانية. وتارة أخرى يتمثل مع مجمل المؤشرات الخارجية والداخلية التى يفرزها إنتاج أو تلقي الأعمال الأدبية. حيث يصبح العمل الذى غالبا ما يأخذ فى التصورات التى تُعطي للخطاب هذه المساحة الموسعة اسم النص، مجرد بنية مجردة كما يوضح ذلك أحد أقطاب علم النص فان ديك، على سبيل المثال. وإلى جانب هذه الاستعمالات والتوظيفات هناك تصور آخر أكثر عمقا وتعقيدا، ويتصل باستعمالات بعض الفلاسفة مثل ديريدا وفوكو، حيث الخطاب مع هذا الأخير خاصة، يصبح أكبر من التقاطع الموجود بين الكلمات والأشياء،

وبين مجموع المعاني الحاضرة من خلال المؤشرات المجسدة من قبل العمل، وتلك التي تتمظهر من خلالها بوصفها مقتضيات لها. ومعنى ذلك أن الخطاب هو أصلٌ لإنتاج الأعمال، لكنه أصل خارجي بالنسبة للفرد يحضر بشكل ضروري في بنية شكل التفكير نفسه، فينظمه ويحكمه في آن، حيث يبدو طرحه النظري وهو يرى " أن اشتغال آليات النص المعرفية تؤدي إلى تجلية مستويات من الخطاب وإخفاء مستويات أخرى"، الشيء الذي يفرض على النص الانتماء إلى مرحلة تاريخية موسومة بطابعها المعرفي، والذي يدخل معه في علاقات التظهير والإخفاء. مع كون المظهر يساعد المخفي على الظهور لأنه مضمّر فيه ومقتضى من قبله. ومن ثمة يكون الخطاب في الواقع مسؤولاً عن المضمّر الحاضر فيه بالقوة، ولذلك فإن ما يظهر ليس إلا "ذرة الخطاب" وهنا يتمظهر الموضوع الأساسي للخطاب بوصفه سلطةً تتحكم في الأعمال الأدبية، أو لنقل النصوص التي تتماهى هنا مع ذرة الخطاب فقط وليس مع الخطاب. ومن الواضح أن هذا المعنى العميق للخطاب يجعله عاماً وقابلاً لتشكيل ما لا نهاية من النصوص والتحكم فيها. إنه يبدو إذا شئنا استعارة مفاهيم دو سوسير اللسانية، يماثل اللغة بينما تماثل ذرر الخطابات أو النصوص الكلام. ونفس الأمر يصدق على النص تقريباً ...

أما القضية الثالثة، فتتمثل في كيفية استقبال الدليلين العربيين "الخطاب والنص" للمفهومين الغربيين واحتوائهما مع أنهما في العربية يجسدان مفهومين موجودين في الثقافة العربية وفي جملة من حقولها المعرفية.

ويترتب عن كل ذلك، أننا في استعمالاتنا العادية لهما بوصفهما مفهومين، غالباً ما أصبحنا نراكم في نفس الدال مدلولات عدة عربية

وغربية. وهكذا صار المفهومان من أكثر المفاهيم التباسا. فغدا من اللازم، من أجل توضيح حدود موضوعهما، ربطهما بتصوير ما لاتجاه أو منظر أو إعادة بناء دلالتها من جديد.

## 2. النص والخطاب بوصفهما دليلين لغويين

انطلاقا من هذا الإدراك، فإن أية محاولة لإعادة التحديد، لا بد لها من الانطلاق من تعرف الاختلاف الأصلي الكامن في التعريفات الثقافية العربية، وأولها أهم ما ورد في المعاجم الأساسية وخاصة ما يتصدر مدخل الجذرين "خطب" و "نصص" في لسان العرب :

إن خطب تعني الخطب أي الشأن الذي هو مدار الحديث ومناطه، كما تعني التخاطب والخطبة، وهي من ثمة تعني الحركة الذهنية والفاعلية والتفاعل، والحوار. بينما تعني كلمة نصص البروز والظهور والتجلية والتزيين، وبلوغ الغاية والتميز. ومن الملاحظ جليا أن اللغة قد أنتجتها للدلالة على حالتين أشياء مختلفتين جدا، فالخطب والخطابة والخطبة كلها تدور حول محور الجدل والحوار والتواصل، بينما تتمحور أدلة النص والتصيص والنصة والمنصة حول الشيء البارز والظاهر، وقد استقرت على حال ثابتة. ومن هنا فإن الاختلاف الأول يكمن في التماسك المتحقق في الفاعلية والجمود، في التوليد بالقوة والتثبيت بالانغلاق، في المرجع الموسوعي والمرجع الأفرادي. ويعني ذلك باختصار أن موضوعهما مختلف بالضرورة. ولعل بعض هذه المعاني مدعم بدلالة الكلمتين بوصفهما مفهوميين تراثيين، حيث يرتبط النص في الثقافة العربية أكثر بالجمود والثبات، وبالمعنى الإشاري الذي لا يقبل التأويل، غير أن النص وفق هذا المعنى ليس بالضرورة محددًا لعمل متماسك ومستقل ومرتبطة بوجود محدد في الزمن، كما يدل على ذلك النص في



## مراجع الدراسة

- عبد اللطيف محفوظ، آليات إنتاج النص الروائي : نحو تصور سيميائي، دار العلوم ناشرون بيروت ومنشورات الاختلاف الجزائر 2008.
- Greimas (A.J), & Courtés (J), Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette Paris, 1979, tome 1.
- Maingueneau (D), L'analyse du discours, Hachette, Paris, 1991.
- Piece (C.S) Textes Fondamentaux De Sémiotique, Traduction et notes B.Fouchier-Axelsen et C.Foz, ed, M.K. Paris 1987.
- Ecrits sur le signe, Tra.. par G.Deledalle, Seuil, Paris, 1978.